كتاب المبرد "الكامل في اللغة والأدب" ودوره في خدمة لغة العرب

يوسف هاجر

مقدمة:

إن معجزة القرآن الكريم بحواره المعرفي الأسلوبي الفكري الجمالي الحضاري كان سببا في ظهور علوم كثيرة لها صلة بالدراسات البلاغية والنحوية والصرفية والأسلوبية والنقدية. ناهيك عن علوم التفسير، وأصول الفقه، وعلوم القرآن...

ومن الفكر الجزئية في القرآن الكريم التي حظيت باهتمام بالغ من الدارسين قضية اللفظ والمعنى، فرغم تكرار ألفاظ بعينها في القرآن إلا انها تأخذ معنى وحياة في كل سياق، ما جعل بعض دارسي إعجاز القرآن يعتبرون ذلك وجها من أوجه إعجازه.

فهل عاصر المبرد هذه الفترة الزمنية التي فتحت الباب على مصراعيه للولوج إلى عالم النص القرآني، وسبر أسراره العقدية واللغوية والجمالية؟ وهل قضية اللفظ والمعنى في كتاب "الكامل" للمبرد بلورة لمسألة من مسائل البلاغة ضمن بعدين هما :بنية الخطاب ،والوسائل التعبيرية ؟أم أن المبرد نظر إلى القضية من جوانبها الفنية الجمالية ؟ كثيرة هي الأسئلة التي تحتاج إلى بسط وعرض ،ولكنا نسعى في هذه الورقة إلى تسليط الضوء على ما جاء في الملخص.

من كلام العرب:

يذكر أبو العباس في الباب الأول من الجزء الأول من كتاب "الكامل" في اللغة والأدب (من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم وقد يقع الإيماء إلى الشئ)١ واللافت توظيف من التبعيضية الجزئية بمعنى أن ما سيذكره هو بعض أو جزء من كل، ومما ذكره:

١- الاختصار المفهم: أي ان العرب تراعي في كلامها الاختصار والإيجاز. ولكن دون إخلال بالمعنى، ما جعل المبرد يربطه بـ"المفهِم" لأن وظائف اللغة: التواصل، التبليغ، التأثير. فقد نتواصل ولكن لا نبلغ، وهي لفتة ذكية من أبي العباس (المبرد) إلى أن الوظيفة التواصلية لا تحقق بالضرورة الوظيفة التبليغية، لتكون آراء أبي العباس في الدراسة اللغوية سابقة لما قال به هيمس "في الوظيفة التبليغية للغة"، وقد ركز الدارسون العرب في تعريفاتهم للبلاغة بأنها "كلمة تغني عن البقية".

٢- الإطناب المفخم: والإطناب الإطالة دون ملل، فقد قيل خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل، فقد يحدث الملل مع الإطناب، كما يحدث مع الإيجاز المخل بالمعنى، ما جعل المبرد يسند المفخم للإطناب، فالشيء المفخم الجليل، العظيم القدر، أي رغم أن الكلام امتاز بالإطناب ولكنه جليل غير منفر، ولا ممل.

٣- الإيماء: بتحقق باعتماد أسلوب التلميح بدل التصريح إذ (قد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه كما قيل لمحة دالة)٢. ولا تتحقق اللمحة الدالة إلا لعارف باللغة متمكن من سبر أغوارها، على دراية بمنعطفاتها ومنعرجاتها، ممسك بالعصا النحوية السحرية للغة، لأن شوارع اللغة تحوي متاهات كثيرة، فحتى نصل إلى الهدف سالمين علينا أن نكون على بينة بهذه الضوابط اللغوية والأدبية، ويستشهد المبرد بما وقع فيه الإيماء بقول الفرزدق يهجو جريرا:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

(فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف فقال: وقضى عليك به الكتاب المنزل، يريد به قول الله تبارك

وتعالى: ((وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)). سورة العنكبوت-الآية ٤١)٣.

لقد كان للحرب الكلامية بين الفرزدق وجرير بالغ الأثر في شعر النقائض في العصر الأموي، فالفرزدق بعراقة حسبه ونسبه كان يرى نفسه الأفضل، أما جرير فقد استطاع أن يبني بشعره لنفسه حسبا ونسبا، بل استطاع في كثير من نقائضه أن يتفوق على الفرزدق، فانظر أي فضل ومزية للكلام عندما استطاع جرير أن يطوعه لخدمة أغراضه، وإعلاء مكانته، فالمقدرة اللغوية هي التي تمنح المبدع التميز والتفرد، فقد (بان بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك)٤.

وتاريخ التفكير النقدي احتفظ في ذاكرته بمقولة الجاحظ التي كان لها صدى بين النقاد "والمعاني مطروحة في الطريق" ولكن الجاحظ لم يتوقف هنا بل أعطى شروط الفن الحقيقي (وإنما الشأن ي إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير)٥.

فاللغة أسرار ولطائف، ومن أراد بلوغ ذلك فعليه أن يعمل الفكر ويجهد العقل. والجاحظ هو العارف بأن "ما كل ما يعلم يقال" وبذلك فإن النص يحتوي على فجوات وظيفة القارئ ملؤها، وهذه الفجوات هي التي تفتح باب التأويل وصدق المتنبي إذ قال:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فهذه الخصومة التي عبر عنها المتنبي دليل على أن شعره يذهب فيه متتبعوه مذاهب وتأويلات، فهو بذلك يشرك القارئ في العملية الإبداعية، ويترك مجال التأويل قائما أمامه، فالقصيدة بعد نظمها لا تصبح ملكا له فهو ينام ملء جفونه عن مفرداتها الشاردة كشرود جمل يحاول الكل العثور عليه بطريقته الخاصة، ولا يحصل ذلك إلا لعارف بشوارع اللغة وبأسرارها.

الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر:

إذا جمع الأديب في كلامه بين لونين مختلفين أحدهما كلام قبيح والآخر كلام حسن فإن شين القبيح أظهر، وعواره أبين (ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قوله "أي الفرزدق":

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن اسمعيل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو خال هشام بن عبد الملك فقال وما مثله في الناس إلا مملكا يعني بالمملك هشاما أبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا وكان يكون إذا وضع الكلام أن يقول وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أم هذا المملك أبو هذا الممدوح فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير)٦، فالتقديم والتأخير باب متألب لا يؤمه إلا متمكن في اللغة، فهو يحتوي على شروط وضوابط إذا لم يتقيد بها المبدع يكون قد خرج عن أعراف أهل اللغة وفنيات أهل الأدب.

فالتقديم والتأخير بحر لجيّ لا يخوض فيه إلا متمرس على السباحة في أبحر اللغة، إلا ان مخالفة الفرزدق لقواعد اللغة هو الذي جعل المبرد ينعت هذا البيت بأنه مخالف لكلام العرب المفهم، ونفس البيت أورده عبد القاهر الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز وعلق عليه بقوله (ومن نظائر ذلك -أي بيت الفرزدق- مما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من سوء التأليف، أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف وإضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ، ولا يصح على أصول هذا العلم)٧.

واللافت أن المبرد وقف عند بيت الفرزدق ناقدا وشارحا ومعلقا ووصل إلا أن سوء طريقة التقديم والتأخير هي التي جعلته يصنفه في أقبح الشعر، أما الجرجاني فاكتفى بالقول (ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد النظم، فليس من أحد يخالف في نحو قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه٨

وقال محقق دلائل الإعجاز محمد التنجي إن البيت فريد في الديوان وهو شاهد على التعقيد المعنوي، لذا على المبدع أن يرتب الكلام في النفس قبل النطق به، وأن يلفظه بطريقة سهلة سلسة بعيدة عن التعقيد وهنا نشير إلى أن الظاهرة الأسلوبية مرتبطة بالسياق، وعليه فهي تتغير بتغير المواضيع، فما ينسب من قبح وجمال لا يرتبط بالكلمة ولكن بطريقة توظيف الكلمات،، كيف توظف؟ ومتى توظف؟ وأين توظف؟ فالبيت السابق والذي يعد نموذجا في التعقيد اللفظي أو المعاظلة، وبعد المعنى وقبح الضرورة ليست هاته العيوب في الكلمة ولكن في كيفية توظيف الكلمة .وإلى هذا أشار إبراهيم أنيس بقوله: (ومثل الفكر الإنساني قبل النطق بمضمونه مثل الصورة الشمسية قبل تحميضها، فإذا عولجت بقدر خاص من الأحماض اتضحت معالمها وتكشفت خطوطها وملامحها، وهكذا شأن التعابير اللفظية مع العمليات الذهنية، لا يكاد يعدو مهمة التوضيح وإبراز المعالم والملامح للأذن الإنسانية)٩.

وما يمكن استنتاجه من حديث أبي العباس عن كلام العرب نوضحه باعتماد هذا المخطط، مع التأكيد على الشعر لأننا وجدنا معظم الشواهد من الشعر.

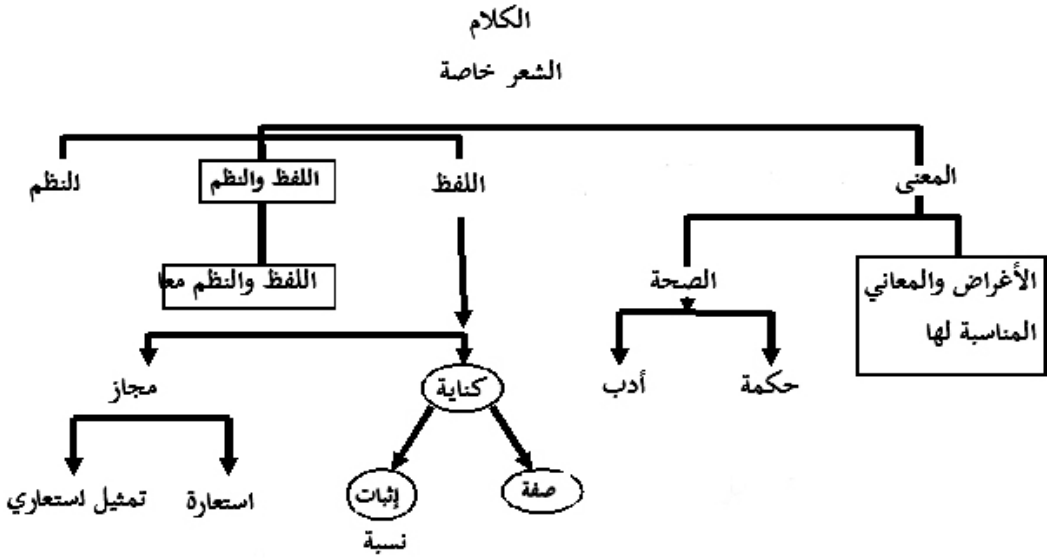

اللفظ والمعنى:

قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا النقدية التي شغلت النقد العربي قديما وحديثا، كما شكلت في الدراسات الإعجازية مبحثا من المباحث التي أثْرت الدراسات الأدبية والنقدية، عندما سمح الدارس العربي لنفسه أن يتناول إحدى كبرى القضايا إنها قضية إعجاز القرءن الكريم، وانقسم الدارسون بين قائل بالصرفة، وبالغيوب، وبالأثر النفسي، وباللفظ، وبالمعنى. حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وحسم هذه الإشكالية حين قال بالنظم، لتفجر قضية النظم كذلك صراعا فكريا تمخضت عنه دراسات لغوية وأدبية حينما رفع الجرجاني راية "الألفاظ خدم للمعاني" مع العلم أن قضية اللفظ والمعنى طرحت تحت مسميات مختلفة، فقيل: الشكل والمضمون، المبنى والمعنى، المبنى والمحتوى، الإطار والمضمون.

ولنا أن نعود إلى زمن المبرد متسائلين كيف نظر إلى قضية اللفظ والمعنى؟ وهل شكل مبحثهما عنده اجترارا لآراء سابقيه؟

أم انه استطاع أن ينظر إليهما من زاوية خاصة؟ وللإجابة علينا أن نتتبع هذه القضية في الباب الأول من الجزء الأول من كتاب الكامل.

ألفاظ بينة، مفهمة، حسنة :

قال أبو العباس (فمن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الرصف قول الحطيئة:

وذاك فتى إن تأته في صنيعة إلى ماله لا تأته بشفيع)١٠

فالحطيئة معجب بمن إذا قصدته في معروف لا تحتاج إلى شفيع أو وسيط، لأنه يقدم ما يقدم من خير لأجل الخير ذاته، ولعل إعجاب المبرد بهذا البيت لما حمله من معنى شريف ولفظ بين مفهم.

كما استوقفه بيت عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم١١

يكشف هذا الخطاب الموجه لعبلة عن تعفف نفس الشاعر، وعن عزته، فهو يصور اقتحامه أرض المعركة غير مبال بنفسه مضحيا في سبيل القبيلة، ولكنه يتعفف عند أخذ المغانم، فدخوله إلى المعركة يضعه إزاء مسألة الموت والحياة، فإما أن يكون بانتصار على العدو، وانتصار على النفس. وإما ألا يكون بهزيمة أمام الأعداء، وخضوع لأهواء النفس، وقد استطاع عنترة أن يحقق صحة المعادلة الأولى وما أروعها من معادلة، والدليل تقديمه لجواب الشرط "يخبرُك" مفتخرا بما أنجزه في المعركة والتقدير: من شهد الوقيعة يخبرك...

والمبرد لم يعلق على هذا البيت، ولم يوضح الألفاظ البينة القريبة المفهمة لأن كل ألفاظ البيت واضحة بينة، فكأننا بالمبرد يقول بأن التفاوت بين الأدباء مرده إلى قدرة الأديب على حسن إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع، إذ نجد نفس اللفظة تحسن في موضع ولا تحسن في آخر، والسبب هو قدرة هذا الأديب على توظيف اللفظة في يمنحها الحركة والحياة بمراعاة ما قبلها وما بعدها، وهي ميزة لا تعطى إلا لأديب محترف متمرس فنان يعشق جمال الكلمة انطلاقا من جمال أصواتها (فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عملت منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها، وترتيبه إياها إلى ما لم يتهد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الكاتب والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم)١٢.

وبعقل العالم، وبعين الفنان نظر المبرد للإبداع الأدبي على أنه عملية تحتاج لنظر وتدبر وتمعن شأنها شأن الصناعات، من ذلك اختيار الألفاظ وملاءمتها لمعناها، ومناسبتها لمواضعها حتى يتبدى حسنها (ومما يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه وجزالة لفظه وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس قول ابن ميادة لرياح بن حيان المري:

أمرْتكَ يا رياح بأمر حزم فقلت هشيمة من أهل نجد
نهيتك عن رجال من قريش على محبوكة الأصلاب جرد
ووجدا ما وجدت على رياح وما أغنيت شيئا غير وجدي

فقوله فقلت هشيمة من أهل نجد تأويله ضَعَفة وأصل الهشيم النبت إذا ولى وجف وتكسر فذرته الرياح يمينا وشمالا. قال الله تعالى "فأصبح هشيما تذروه الرياح" سورة الكهف، الآية ٤٥)١٣. وقد وظف المبرد آيات قرآنية لشرح ما جاء من معان وكلمات في الأبيات، ليدلل على ابن ميادة قد أصاب مدلولاته بدوال جزلة معبرة قوية أخرجت فكرته أحسن إخراج، وعبرت عنها خير تعبير.

أما إحسان عباس فقد أشار إلى أن قضية اللفظ والمعنى كان لها حضور مميز في كتاب الكامل للمبرد (فالشعر لديه مستحسن أحيانا لصحة معناه وجزالة لفظه وكثرة ورود معناه بين الناس، أو لقرب مأخذه، أو لسهولته وحسنه، أو لغرابة معناه وجودة لفظه، أو لخلوصه من التكلف وسلامته من التزيد. أما الضرورات اللفظية والالتواء في المعاني واستعمال الكلمات الهجينة

فذلك هو ما ينكره ويمقته)١٤، وهي كما ترى شروط متعلقة بمعيار الشعر الحسن من وجهة نظر المبرد، وقد اتفق في كثير من هذه المعايير مع سابقيه، خاصة ما له علاقة باللفظ والمعنى.

الطبع والصنعة:

الطبع جاء في لسان العرب (أن الطبع والطبيعة، الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان، وطبعه الله على الأمر فطره عليه)١٥، ونقول طبعه الله على الأمر يطبعه طبعا: فطره، ويترادف مفهوم الطبع ومفهوم القريحة، وأورد ابن سلام في الطبقات: أن الأصمعي كان يمدح النابغة الجعدي وينسبه إلى قلة التكلف، وابن قتيبة يرى أن (المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة)١٦. فالطبع يمكن الإنسان من الإبداع والوصول إلى الخلق الفني مع أن (الشعراء أيضا في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعسر عليه الغزل)١٧، أما قدامة بن جعفر فيعتبر الطبع مرادفا للقريحة، أما الأصفهاني فيربط الطبع بالجزالة وقد عرف عنه ميله للشعراء المطبوعين.

أما المتكلف فيقول فيه ابن قتيبة (فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعي يقول زهير والحطيئة وأشباههما "من الشعراء" عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين)١٨.

وكان سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره:

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سربا من الوحش نزعا١٩

والصنعة إنما هي إتقان العمل والتفنن فيه، ويكون التكلف من الحسن إذا كان غرض الشاعر إظهار المحاسن، كما يكون مستكرها إذا كان فيه مبالغة وتصنع. ومهما يكن من أمر فإن الشاعر بقدر ما يحتاج إلى السليقة والموهبة بقدر ما يحتاج إلى الدربة والثقافة للتمرس أكثر. وقد سمى أبو هلال العسكري كتابه "الصناعتين" أي صناعة الشعر والنثر، ومنهم من سمى الأدب صناعة لما فيه من ابتكار الصور والمهارة في إصابة المعنى، والحسن في صياغة الأسلوب.

إلا أن المبرد يميل إلى آلية فنية جمالية وهي آلية الاقتصاد في اللغة فهو لم يعرف الطبع والصنعة ولكنه أشار إلى ذلك بقوله (ومما يفضل لتخلصه من التكلف) فجعل الطبع سمة متى توفرت في الكلام كان مفضلا عن غيره (ومما يفضل لتخلصه من التكلف وسلامته من التزيد، وبعده من الاستعانة قول أبي حية النميري

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية أرآم الكناس رميم

"قيل في ستر الله الإسلام وقيل فيه إنه الشيب وقيل ما حرم الله عليهما".

ألا رب يوم قد رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

يرى الناس أني قد سلوت وأنني لمرمي أحناء الضلوع سقيم

يقول رمتني بطرفها وأصابتني بمحاسنها ولو كنت شابا لرَميت كما رُميت وفَتنت كما فُتنت ولكن قد تطاول عهدي بالشباب فهذا كلام واضح)٢٠.

وحتى لا تحدث القطيعة الابستمولوجية بين مفاصل الفصول وبين المتن فإن المبرد يعود ثانية ويستدعي المصطلحات شارحا ومعلقا (وأما ما ذكرناه من الاستعانة فهو أن يُدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحح به نظما أو وزنا إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم: ألست تسمع، أفهمت أين أنت وما أشبه هذا)٢١، وما يمكن استنتاجه من كلام المبرد السابق أن الأديب لا يمكن أن يحلق إلا بجناحين: اما الجناح الأول فهو الطبع، وأما الثاني فهو الصنعة الناتجة من المران والممارسة والدربة، فإذا تمكن الأديب من هاتين الصفتين كان بإمكانه أن يتدرج في مدارج المبدعين.

ولعل الطريف في كتاب الكامل ما يستوقفك من المسائل الصرفية حينا والنحوية أو البلاغية أو النقدية أحيانا أخرى، ولا شك أن تنوع هذه المسائل كان كالملح في الطعام إذ بقدر ما خلق التشويق بقدر ما زاد من مكانة هذا الكتاب الذي اعتبره ابن خلدون أصلا من أصول أربعة لفن الأدب وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي.

معيار الشعر الحسن عند المبرد:

حدد المبرد في كتاب الكامل جملة من المعايير إذا توفرت في الشعر كان حسنا ومقبولا منها:

الصحة المعنوية، جزالة اللفظ، أن تكون المعاني مما يكثر وروده بين الناس، سهولة الشعر وقرب مأخذه، غرابته وجودة ألفاظه، خلوه من التكلف والتصنع.

كما ذكر المبرد جملة من العيوب التي تخل بالشعر منها:

كثرة الضرورات اللفظية، تعقيد المعاني، توظيف الكلمات الهجينة.

مبحث مختصر في البلاغة:

يرى حمادي صمود أن المبرد قد اقتفى أثر الجاحظ في إبراز بلاغة "الاختصار المفهم" و "الإطناب المفخم" و "الإيماء والإشارة" (كما ترسم خطاه في مستلزمات الخطابة، واعتنى مثله عناية فائقة بعيوب الخطيب والنقائص التي تتخون خطابته)٢٢.

وذكر المبرد بيتا من الشعر جمع فيه صاحبه عيوب بعض الخطباء

مليء ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع٢٣

فالبهر هو تتابع النفس من العي، وهو عيب من عيوب الخطيب لأن تتابع النفس يجعل انقطاعا في الكلام فيكون غير فصيح وغير واضح فلا يصل المقصود إلى المتلقي، أما كثرة الالتفات فإنه يشتت انتباه الحضور فيقل التركيز، أما السعلة فتجعل كلام الخطيب غير متواصل لاحتوائها على حركات يدفع بها الإنسان ما بالرئتين من أذى، ومن العيوب مسح اللحية وفتل الأصابع كلها حركات تشذر انتباه الحضور وتفقد الخطيب هيبته والخطبة أهميتها فيصبح الخطيب كأنه مهرج.

كما ذكر "الجبن" واعتبره عيبا من عيوب الخطيب

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل٢٤

فرغم اعتراف الشاعر بأن الخطيب مُجيد إلا أن وقوع السيف أو النبل أرعبه فتذبذب وذهل ما جعل الخطيب فقد توازنه وتركيزه وهو عيب لا يليق بالخطيب في هذه المواقف.

آراؤه النقدية:

رغم اختلاف الدارسين حول المبرد إن كان ناقدا أم لا إلا أن روح النقد جلية في كتاب الكامل منها: أن الشعر عنده لا يفضل لقدم العهد أو لحدْثان عهد وإنما يفضل بما حواه من معنى شريف، وتأليف فريد مستشهدا بهذا البيت:

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

(فهذا أوضح معنى، وأعرب لفظ، وأقرب مأخذ، وليس لقدم العهد يُفضّل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق)٢٥، فإعجاب المبرد بهذا البيت لما ذكره من المعنى الواضح واللفظ المبين، إذ شبه الشاعر الشيب في رأس الإنسان بالليل الأسود الذي يتصارع مع نهار، وهذه حقيقة نلحظها في اجتماع الشيب مع لون الشعر الطبيعي وهو السواد، وكيف أن هذا الصراع يكون على أشده في زحف الشيب على كل الرأس ليعلن انتصاره.

ولا نبالغ إذا قلنا إن تحليلات المبرد اللغوية تلتقي مع الدرس الحديث (فالدرس اللغوي الحديث يتفق مع ما يعرف بالعملية التحليلية التي تسبق العملية التركيبية، أو ما يسمى بعملية الانتقاء والاختيار التي تسبق عملية الموقعية)٢٦، وقد أشرنا سابقا إلى هذه العملية التي تناولها الدرس اللساني وهي حسن إسقاط محور الاستبدال على محور التأليف، وهكذا نجد المبرد قد مزج بين النحو والبلاغة من خلال اهتمامه بالتركيب والمعنى، والصياغة والتصوير. وهذا المزج منطقي لأن كتاب "الكامل" لغوي أدبي فالجانب اللغوي يهتم بالتركيب وبالصياغة، والجانب الأدبي يهتم بالمعنى وبالتصوير، وبذلك يكون المبرد قد حقق صحة المعادلة النقدية بأن الكلام الخالد يجمع بين دقة التركيب وجمال التصوير.

نبذة من كلام الحكماء:

ختم المبرد الباب الأول من الجزء الأول من الكامل بنبذة من كلام الحكماء وهي رسالة مرمزة هدفها أن الحكمة تاج العقل .وأورد لذلك أقوالا لمن يرى أن ما قالوه ترجم صميم الحكمة عند العرب منهم :ابن عمر ،وقيس بن الأحنف وعلي رضي الله عنه (قال أبو العباس ثم نذكر من كلام الحكماء وأمثالهم صدرا ثم نعود إلى المقطعات إن شاء الله، يروَى عن ابن عمر أنه كان يقول: إنّا معشر قريش كنا نعد الجود والحلم السؤددَ، ونعد العفاف وإصلاح المال المروءةَ، قال الأحنف بن قيس: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزح تذهب المروءة، ومن لزم شيئا عرف به. وقيل لعبد الملك بن مروان ما المروءة؟ فقال: موالاة الأكْفاء ومداجاة الأعداء، وتأويل المداجاة المداراة أي لا تظهر لهم ما عندك من العداوة، وأصله من الدجى وهو ما ألبسك الليل من ظلمته. وقيل لمعاوية ما المروءة؟ فقال احتمال الجريرة، وإصلاح أمر العشيرة، فقيل له وما النبل؟ فقال الحلم عند الغضب والعفو عند القدرة)٢٧، فابن عمر ذكر مجموعة من الصفات التي كانت تحتكم إليها قريش وبها تحدد مكانة أية قبيلة، أما قيس بن الأحنف فقد خبِر الدنيا وخبِرته ورأى أن المروءة تذهب بكثرة المزح، وأن الهيبة تذهبها كثرة الضحك، وكل هاته الحكم رسائل وقعها الواقع لتكون شاهدة على عظمة رجال شاركوا في صنع المجتمع العربي الإسلامي.

ومن حكم الإمام علي رضي الله عنه وكرم وجهه ذكر المبرد ما قاله علي عن الأزد (ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه تعالى أنه قال للأزد أربع ليس لحي: بذل لما ملكت أيديهم، ومنع لحوزتهم، وحي عمارة لا يحتاجون إلى غيرهم، وشجعان لا يجبنون)٢٨، الأزد: قبيلة عربية تنتمي لكهلان من سبأ من القحطانية هجروا اليمن بعد تصدع سد سبأ، ومنهم الأنصار بعد انقسامهم. والأسْد من الأسَد: قال ابن دريد اشتقاق الأسْد من قولهم: أسِد الرجل يأسَد أسْدا، إذا تشبه بالأسَد، فمن صفات هذا القبيلة البذل والعطاء والدفاع عن قومهم، والتعاون فيما بينهم فلا يحتاجون لغيرهم وشجاعتهم التي تحول بينهم وبين جبنهم، ولا نتعجب من هذه الصفات إذا علمنا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال في الأنصار والذين هم من الأسْد (إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع).

الخاتمة:

بعد هذا الرحيل في الباب الأول من الجزء الأول من كتاب "الكامل" للمبرد، تأملات معرفية ،خلصت المداخلة إلى مجموعة من النتائج تنخّلت منها ما يأتي:

١- كتاب "الكامل" أحد الدواوين الأربعة في أصول فن الأدب كما أشار إلى ذلك ابن خلدون.

٢- جمع الكتاب ضروبا من الأدب كما جاء في مقدمته منها: النثر والشعر، والمثل والموعظة، والخطبة والرسالة.

٣- العلوم المتداخلة تشكل ظاهرة التفضي في الدرس العربي القديم، وهذا ما يترجم موسوعية الدارس العربي، إذ يقتسم علم النحو وعلم الصرف وعلم البلاغة وبعض الفكر النقدية فضاء الصفحة الواحدة في كتاب "الكامل" وهذا ما يفتح أمام القارئ مجال البحث في القواسم المشتركة بين هذه العلوم.

٤- الانتقال في الحديث من الشعر الحسن إلى الشعر القبيح إلى شروط الفصاحة إلى التعقيد اللفظي إلى ظاهرة الاختصار

إلى الإطناب بشكل تقنية كتابية لها فاعليتها في استفزاز القارئ وحمله على تتبع هذه المسائل الجزئية التي تثري مقروئيته.

٥- اجتماع الكلام القبيح مع الكلام الحسن يجعل قبح الأول أكثر ظهورا، وعواره أكثر تجليا.

٦- قضية اللفظ والمعنى شكلت واسطة العقد في كتاب "الكامل" من خلال اهتمامه بحسن إسقاط محور الاختيار "الاستبدال" على محور التوزيع "التأليف".

٧- معيار الشعر الحسن والقبيح تحدد عند المبرد بمجموعة من المعايير لم يختلف فيها مع سابقيه.

٨- دقائق الإبداع الفني في الشعر من أجل فهم نقدي أفضل كانت بداياتها الأولى عند الجاحظ، واتسعت هذه المحاولة على أيدي ابن المعتز، وأبي العباس المبرد، وأبي العباس ثعلب ،وكان لجهود هؤلاء آثار مثمرة حول ماهية الإبداع الشعري ومقوماته.

الهوامش

١- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، (د-ت)، ص.١٧.

٢ - المرجع نفسه، ص.١٧.

٣ - المرجع نفسه، ص.١٨.

٤ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الحرجاني، تحقيق محمد التنجي، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص.٦٠.

٥ - المرجع نفسه، ص.١٩٨-١٩٩.

٦ - الكامل، المبرد، ص.١٨.

٧ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص.٧٩.

٨ - المرجع نفسه، ص.٧٨.

٩ - نظرية عبد القاهر في النظم، درويش الجندي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٢، ص.٥٠.

١٠ - المبرد، الكامل، ص.١٧.

١١ - المرجع نفسه، ص.١٧.

١٢ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص.٨٢.

١٣ - الكامل، المبرد، ص.٢٨-٢٩.

١٤ - تاريخ النقد العربي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، المركز العربي لتوزيع المطبوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٣ ،ص.٨٢.

١٥ - لسان العرب، ابن منظور، مادة طبع، ج٨، ١٩٧٩، دار العرب، بيروت، لبنان، ١٩٧٩، ص.٢٣٢.

١٦ - الشعر والشعراء، ابن قتيبة، الجزء الأول، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٤، ص.٣٤.

١٧ - المرجع نفسه، ص.٣٧.

١٨ - المرجع نفسه، ص.٢٢-٢٣.

١٩ - المرجع نفسه، ص.٢٣.

٢٠ - الكامل، المبرد، ص.١٩.

٢١ - المرجع نفسه، ص.١٩.

٢٢ - التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، ط٢، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ١٩٩٤، ص.٣٥٧.

٢٣ - الكامل، المبرد، ص.٢٠.

٢٤ - المرجع نفسه، ص.٢٠.

٢٥ - المرجع نفسه، ص.١٨.

٢٦ - عالم اللغة عبد القاهر المفتن في العربية ونحوها، البدراوي زهران، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥، ص.٢٢٣.

٢٧ - المرجع نفسه، ص.٢٩-٣٠.

٢٨ - المرجع نفسه، ص.٣٥.